مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١٣: ٧-١٦)

يا إخوةُ اذكُروا مدبِّريكم الذينَ كلَّموكم بكلمةِ الله. تأمَّلوا في عاقِبَةِ تصرُّفهم واقتَدوا بإيمانِهم* إنَّ يسوعَ المسيحَ هو هو أمسِ واليومَ وإلى مدى الدهر* لا تنقادوا لتعاليمَ متنوِّعَةٍ غريبة. فإنَّه يَحسُنُ أن يُثبَّتَ القلبُ بالنعمة لا بالأطعمةِ التي لم ينتفعِ الذينَ تعاطَوْها* إنَّ لنا مذبحاً لا سُلطانَ للذينَ يخدُمونَ المسكِنَ أن يأكُلوا منه* لأنَّ الحيواناتِ التي يُدخَلُ بدمِها عن الخطيئةِ إلى الأقداسِ بيدِ رئيسِ الكهنةِ تُحرَقُ أجسامُها خارجَ المحلَّة* فلذلك يسوعُ أيضاً تألَّم خارجَ البابِ ليقدِّسَ الشعبَ بدمِ نفسه* فلنخرُجْ إذاً

قنداق الظهور الإلهي للقديس رومانوس المرنم

بالخديعة تعرّى الإنسان من النعمة في الفردوس وفقد الحلّة المنسوجة من الله. ولكن الله بما أنه رؤوف ومتحنّن أرسل ابنه الوحيد الذي به سُرَّ ليصير مشابهاً لنا. فقد تعرّى عند معموديته لكي يكسونا نحن العراة وينيرنا نحن الذين في الظلام، وأعطانا القدرة حتى نلمسه كما لمسه قديماً يوحنا السابق حين لامس هامته في الأردن معمّداً إياه. هذا ما حاول القديس رومانوس أن ينقله إلينا في القنداق الذي نظمه لمناسبة عيد الظهور الإلهي، والذي نتلو منه في هذا العيد المقدمة والبيت الأول.

عندما تعرّى الإنسان من النعمة بتعدّيه لوصايا الله، خجل واختبأ من وجهه، فأتى إليه الله وبحث عنه منادياً إياه. في ذلك الوقت أُخرج الإنسان من الفردوس، ولكن الله ظل يبحث عنه منادياً إياه بصوت الأنبياء داعياً إياه للعودة إليه. وأخيراً أتى إليه بنفسه داعياً إياه (البيت ٢).

لقد فعل الله هذا كله بسبب محبته غير المحدودة وغير الموصوفة لنا نحن خليقته التي خلقها على صورته ومثاله وكان ذلك حسنٌ جداً. لذلك لم يكن ممكناً أن يتركنا إلى النهاية فتنازل متجسداً من أجلنا صائراً مشابهاً لنا في كل شيء، ما خلا الخطيئة، ليعيدنا إليه (البيت ٣).

في البيت الرابع يتحدث عن يوحنا السابق الذي هيأه الله منذ ولادته ليهيء له الطريق ثم يعمّده. وكما اضطرب والده زكريا أمام جبرائيل، هكذا اضطرب يوحنا عندما رأى الرب نفسه متعرّياً وواقفاً أمامه طالباً منه أن يعمّده (البيت ٤).

العدد ٢/٢٠٠٩
الأحد ١١ كانون الثاني
الأحد بعد الظهور الإلهي
تذكار أبينا البار ثاودوسيوس
(عطاء الله) رئيس الأديرة
اللحن الخامس
إنجيل السَحَر الثامن

لم يكن بمقدور يوحنا السابق أن يتمّم ما أمره الرب بأن يعمله، أي أن يعمّده، لأنه عرف أنه حَمَلُ الله الذي يرفع خطايا العالم، فكيف له هو غير المستحق، أن يضبط بيديه مَن لا تسعه السموات؟ كيف للمخلوق أن يلامس خالقه؟ كيف لليد المخلوقة أن تلامس النار الإلهية دون أن تحترق؟ كان يكفي يوحنا أن يرى الرب بعينيه، لا بل أن يعتمد هو من الرب يسوع (البيت ٥ و٦).

إن الرب يفهم خوف المعمدان لأن ما سيفعله المعمدان عظيم جداً

إليه إلى خارجِ المحلَّةِ حاملِينَ عارهُ* لأنَّه ليس لنا ههنا مدينةٌ باقيةٌ بل نطلبُ الآتية* فلنقرِّبْ به إذاً ذبيحةَ التسبيحِ كلَّ حينٍ وهي ثمرُ شفاهٍ معترفةٍ لاسمه* لا تَنسَوْا الإحسانَ والمؤاساةَ فإنَّ اللهَ يرتضي مثلَ هذه الذبائح.

الإنجيل

(متى ٤: ١٢-١٧)

في ذلك الزمان لمَّا سمع يسوعُ أنَّ يوحنا قد أُسلِمَ انصرفَ إلى الجليلِ* وتركَ الناصرةَ وجاءَ فسكنَ في كَفْرَناحوم التي على شاطئِ البحرِ في تخومِ زَبولونَ ونفتاليمَ* ليتمَّ ما قيلَ بإشعياءَ النبي القائل: أرضُ زبولونَ وأرضُ نفتاليم طريقُ البحرِ عَبْرَ الأردنِ جليلُ الأممِ* الشعبُ الجالسُ في الظلمةِ أبصرَ نوراً عظيماً والجالسون في بقعةِ الموتِ وظلالهِ أشرقَ عليهم نورٌ* ومنذئذٍ ابتدأ يسوعُ يكرزُ ويقولُ: توبوا، فقدِ اقتربَ ملكوتُ السموات.

ومخيف، لكن الرب يحاول طمأنته لأن عليه أن يقوم بما يأمره الله به كما فعل الملاك جبرائيل قبلاً وتمم مهمته عندما بشَّر زخريا بولادته (البيت ٧ و٨). لا يطلب الرب من يوحنا أن يقول له ما يقوله لمتعدّي الشريعة وما يطلبه من الخطأة. المطلوب فقط أن يعمّده بالصمت والرجاء بما سيلي المعمودية (البيت ١٠). ليس على المعمدان أن يخاف من أن تحرقه النار الإلهية كما احترقت يد الذي لمس تابوت العهد قديماً فتهشمت (٢ مل ٦: ٦-٧) لأن الرب نفسه سيمنح يده القدرة نفسها التي سيمنحها لأيدي رسله وكهنته، وسيُريه الروح القدس بوضوح وسيُسمِعه صوت الآب الذي يعلن أنه ابنه الحقيقي (البيتان ١٢-١٣).

في البيت الأخير يتحدث عن قبول يوحنا المهمة الموكلة إليه طائعاً لله الذي عضده وأعطاه القدرة على إتمام مهمته هذه (البيت ١٨).

عظة رأس السنة

في ما يلي العظة التي ألقاها سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس في قداس ذكرى ختانة السيد وتذكار أبينا الجليل في القديسين باسيليوس الكبير ورأس السنة.

«اليوم السيد يختتن بالجسد كطفل، متمّماً الشريعة. لقد قال الله لإبراهيم «وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلُك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نَسلِك من بعدك. يُختَنُ منكم كلُّ ذَكَر، فتُختَنون في لحم غُرلتِكم فيكونُ علامةَ عهدٍ بيني وبينكم. إبنَ ثمانيةِ أيام يُختَنُ منكم كلُّ ذَكَر في أجيالكم: وليدُ البيت والمبتاعُ بفضةٍ من كل ابن غريبٍ ليس من نسلك... فيكون عهدي في لحمِكم عهداً أبدياً» (تك ١٧: ٩-١٣).

الختانُ علامةُ طاعة لله في كل شيء، وعلامةُ انتماءٍ للشعب الذي قطع عهداً مع الله، ورمزٌ لقطعِ الحياةِ القديمة، حياةِ الخطيئة، وتطهيرِ قلب الإنسان لله والتكريس الكلّي له.

الختانُ علامةٌ على العهد بين الله وإبرهيم وكل بني إسرائيل. هو علامةٌ خارجية لهم بأنهم شعب الله. وعدم الختان يعني عدم الإنتماء لله والإبتعاد عن بركاته وطاعته.

هذا كان في العهد القديم. أما في العهد الجديد فالعهد حصل بتجسُّد ابن الله «لا الختان ينفع شيئاً ولا الغُرلةُ بل الإيمانُ العامل بالمحبة» (غلا ٥:٦). لا حاجة بعدُ لختان الجسد لأننا حصلنا على ختان القلب. الختان هذا ليس خارجياً بل داخلياً، وليس مصنوعاً بالأيدي بل بالروح القدس. «ختانُ القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان، الذي مدحُه ليس من الناس بل من الله» (رو ٢:٢٩) ولا يكون بقطعِ جزءٍ من اللحم بل بقطع الجسد كلّه، جسد الخطيئة، والعملية ليست بآلة حادة بل بمياه المعمودية التي فيها تُمات الخطيئة ونحيا لله بيسوع المسيح لأننا «كل مَن اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته فدُفنّا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيمَ المسيحُ من الأمواتِ بمجدِ الآب، هكذا نسلُك نحن أيضاً في جدّة الحياة» (رو ٦: ٣-٤). المسيحُ حَمَلَ هو نفسه خطايانا في جسده وسمَّرها على الخشبة لكي نموت نحن عن خطايانا فنحيا للبرّ (١بط ٢:٢٤). موت الرب على الصليب كان بمثابة ختانة لخطايانا التي حَمَلها. المعمودية أصبحت موتاً للخطيئة، للإنسان القديم، وطاعةً مطلقةً لمشيئة الله بالنسبة للإنسان الجديد. صار الإنسان بالمعمودية ملتزماً أن يحيا حياة جديدة جوهرُها الطاعةُ لله. هذا الإلتزامُ هو العهدُ الذي قطعناه مع الله عندما لبسناه: «أنتم الذين

تأمل

«لا تنسوا الإحسانَ والمؤاساةَ فإنَّ اللهَ يرتضي مثلَ هذه الذبائح» (عب ١٣: ١٦).

السماء تجارة ونحن نهملها؛ أعطِ خبزاً وخُذ فردوساً، أعطِ أشياء صغيرةً وخُذ أشياء كبيرة، أعطِ أشياء وقتية وخُذ أبدية، أعطِ أشياء تبلى وخذ أخرى لا تبلى. إن كان هناك سوق حيث يمكنك إيجاد أشياء كثيرة ورخيصة جداً، ألن تبيع كلّ ما تملك وتفعل كلّ ما تستطيع لكي تشتري تلك السلع؟ كيف تُظهر إذاً كلّ هذه الرغبة بالأشياء البالية، بينما تتهاون ولا تبالي بالسلعة الخالدة؟ أعطِ الفقراء، فإن أنت سكتَّ في ساعة الدينونة ستدافع عنك أفواه لا تُحصى؛ لأنّ الرحمة ستكون هناك وستدافع عن خلاصك؛ لا تتحجّج بالفقر، فالأرملة التي استضافت النبي إيليا كانت فقيرة جداً، لكنّ الفقر لم يمنعها من استضافته والإحسان إليه بكل ما تملك، لذلك استحقّت التمتّع بثمار رحمتها.

قد تقول لي: «أعطني أنا أيضاً النبي إيليا بالمسيح اعتمدتم المسيحَ قد لبستم».

إذاً نحن ملتزمون الطاعة لله في المحبة. هذا هو العهد الذي قطعناه على أنفسنا. وهذا الإلتزامُ يمتد ليكونَ مع النفس ومع الآخرين.

قد يقطع الإنسان عهداً مع نفسه، يلتزمه ويعمل بمقتضاه، كأن يسلك مثلاً في الفضيلة أو يُقلِع عن عادة سيئة أو يُتمّ دراسة ما أو ينهي اختصاصاً... والإنسان الجدّي يحاسب نفسه، وعند كل منعطف من حياته يتوقف متأمّلاً في ما أنجزه وما بقي عليه أن ينجزه، أي يقيّم ما قام به وهل كان على قدر التزامه وهل هو راضٍ عن نفسه أم خذلها وتعثّر ولم يُتمّ ما تعهد به تجاه ذاته.

الحياة مليئة بالعثرات، والإنسانُ الخلوقُ الصادقُ الذي يفي بالتزاماته قد يواجه المصاعب وقد يفشل ويسقط. لكن المهم أن ينهض ويتابع المسيرة ويتعلّم من التجارب لكي يحمي نفسه مما قد يعترضه في المستقبل. وعليه خاصة أن لا يتأثر بالإنتقادات التي قد يكون سببها الحسد والغيرة وغايتها ثنيه عن هدفه، لأن فاعلي الخير في هذه الأيام قلة، والشر هو الراعي الأول للنفوس الضعيفة، وهي كثيرة.

قد يقطع الإنسانُ أيضاً عهداً مع الإنسان الآخر، والتزامِ العهد هنا قد يكون أصعب لأنه متعلّق بشخصين لا بالفرد مع نفسه. الصداقة عهد بين إنسانين، والزواج عهد واتحاد بين شخصين، والعمل والعقود التي قد تنتج عنه أيضاً التزاماتٌ بين اشخاص عليهم أن يكونوا أمناء لأنفسهم أولاً وللآخر أو الآخرين الذين يعملون معهم أيضاً. لأن مَن لا يحترم نفسه لا يحترم الآخر، ومَن لا يفي بعهد قطعه مع نفسه كيف يكون وفيّاً لإلتزاماته مع الآخرين؟ إن الأمين على القليل هو بالتأكيد أمين على الكثير، ومَن لا يأبه لما يخصّه لن يهتم بما يخص غيره. ومَن لا يحب أخاه بالجسد لن يحبّ من هو غريب عنه وبعيد.

الإلتزام تجاه الآخر لا يكون جدّياً وحقيقياً إن لم يكن صادراً عن إنسان معروف بأخلاقه الرفيعة واحترامه للقيم والأعراف والقوانين والتقاليد وكل ما يجعل من النفس البشرية نفساً وديعة هادئة إجتماعية تقبل الآخر وتحترم فرديته أو بالأحرى فرادته رغم اختلافه عنها. في القديم كانت الكلمة وحدها عهداً بين شخصين، وكانت كافيةً لكي يلتزم الإنسانُ ما تفوّه به ويعتبره دَيْناً عليه، كما كانت كافيةً ليصدّق الآخر ما قاله الأول ويعتمد عليه. «وعدُ الحُرّ دينٌ». أليس هذا المَثَلُ الشائعُ تأكيداً على أنّ الكلمة كانت بحد ذاتها قيمة، وكانت تشكّل ارتباطاً والتزاماً وتعهداً؟

أين نحن من كل هذا في مجتمعنا ونحن نسمع الكلام الفارغ والوعود العرقوبية والإستهانة بالإنسان كقيمة فكيف بالكلمة؟ الإنسان في لبنان فَقَدَ طعم السعادة لأنه أصبح يرى نفسه في مستنقع بشري لا يربط الواحد فيه بالآخر سوى المصلحة. لذلك لم يعد للعهود معنى ولا للكلام جدوى، ولم يعد أحدٌ يصدّق أحداً. الصديقُ يخون صديقه، والزوجُ زوجته، والزوجةُ زوجها، والإبنُ أهلَه، والمواطنُ وطنَه، والمسؤول مَن أوصله إلى المسؤولية.

لقد قرب زمنُ الإنتخابات، والوعود على الأبواب. رجائي أن يتأمّل كلُّ مَن يطمح إلى النيابة في كل كلمة يتفوّه بها أو وعد يقطعه لناخبيه، وإذا لم يكن قادراً على تطبيق وعوده والوفاء بالتزاماته فليختَرْ ما هو قادرٌ عليه لأنّ احترامه في النفوس يترسخ عندما يكون صادقاً وأميناً.

رجائي أيضاً أن يكون كلُّ طامح لوظيفة عامة أو لمركز قيادي حراً مع

وسأستضيفه». لماذا تطلب إيليا؟ أعطيك رب إيليا وأنت لا ترحمه؛ كيف كنت سترحم إيليا لو كنت وجدته؟ لقد قال المسيح، رب الجميع، بكلّ وضوح: «بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي قد فعلتموه» (متى ٢٥: ٤٠). فكّر بالمسيح إذاً، قائلاً عنك في تلك الساعة أمام الملائكة والعالم بأسره: «هذا استضافني على الأرض وقد أحسن إليّ بطُرقٍ كثيرة، وعندما كنت من دون حماية حضنني». أيّ جرأة ستكون لديك حينئذٍ أمام الملائكة! وبأيّ شيءٍ ستفتخر أمام القوى السماوية!

إنّ الرحمة لأمرٌ عظيم يا إخوة إذ تمحو الخطايا وتُبعد الدينونة. إذاً، فلنعطِ الفقير خبزاً؛ لا نملك الخبز؟ فلنعطه فلساً، لا نملك فلساً؟ فلنعطه كوب ماء، لا نملك هذا أيضاً؟ فلنشاركه في محنته وسنحصل على مكافأتنا، لأنّ الله لا يكافئنا على العمل فقط بل على النية أيضاً.

القديس يوحنا الذهبي الفم

نفسه، صادقاً مع نفسه ومع وطنه ومجتمعه، لأن وطننا لم يعد قادراً على النزف أكثر وعلى تحمّل الهدر والإتهامات المتبادلة التي يتراشق بها القيّمون على مقدّرات هذا البلد. وليقلْ كلُّ واحد لنفسه إن لم يكن أخي بخير فأنا لست بخير والوطن ليس بخير. وإن افتقر بعضُ المجتمع يفتقر الوطنُ بأسره، وإن ساء وضعُ البعض يسوءُ وضعُ الجميع. وليهبّوا جميعاً إلى معالجة أي مشكلة في الوقت المناسب لكي لا تصبح معضلة. المزايدات الكلامية التي نسمعها يجب أن تتحوّل إلى مزايدات فعلية أي ليتسابقوا على العمل وليتفاخروا بالأفعال وبالإنجازات وبالساعات الطوال التي يقضونها في العمل لا في الكلام.

الحياةُ قصيرةٌ ولا أحد يعرف متى تأتي ساعته. لذلك على كل واحد منا أن يعي قيمةَ الوقت فلا يهدره بل يستعمله لما فيه خيره وخير وطنه، ويملؤه بالوعود الصادقة والإلتزامات القابلة للتنفيذ، وليكن شعاره الصدق ولا شيء سواه.

سؤال لا يفارق ذهني في كل الأوقات أود أن أطرحه على كل مَن يسمع: هل يعي الإنسان أنه سيموت؟ لو كان الإنسان يفكر بهذه الحقيقة لما اقترف ذنباً ولا أخلّ بوعد أو بعهد ولما أذى أخاه الإنسان أو أساء إلى نفسه وإلى جسده وإلى وطنه وإلى شرفه وكرامته. لو كان الإنسان يفكر بهذه الحقيقة التي لا شك فيها لما شن الحروب وقتل ودمّر وعاث خراباً، وما حقد وخان وتفاخر بنفسه وانقضّ على أخيه كالوحش الكاسر.

هذا ما نشهده اليوم في غزة الشهيدة حيث أشلاء الأطفال ودماؤهم تستصرخ الضمائر إن كان هناك ضمائر، وصيحات الهائمين على وجوههم تستنجد بالعالِمين سائلة ماذا يحصل، وما من جواب إلاّ انفجارات القذائف والقنابل واحمرار النار القاتم وسواد الدخان. إنهم يعلمون أنّ هنا ك وحشاً ضارياً يطاردهم ويطارد أهلهم والبيوت، ولا يسمعون بين فينة وأخرى إلا خطاباً من هنا وكلاماً من هناك وهياجاً هنالك. يتأكدون أنّ الذين هم من جلدتهم وعرقهم هم ظاهرة كلامية، وكما قال أحد أبنائنا الكبار «يتقنون الحفلات التأبينية للشهداء والتظاهرات «الشارعية» ويحوّلونها إلى نهج سياسي من غير أن يدركوا أنها لا تبني الأوطان ولا تصد العدوان».

اما نحن فنرفع الصلاة إلى مَن هو قادرٌ وحده على إنقاذ هذا الشعب المسحوق من هذا العدوان البربري والمجازر، وعلى رفع هذه اليد الظالمة الغاشمة عنه. نسأله أن يرمي في قلوب جميع إخوتنا الفلسطينيين المحبةَ التي تتجاوز كلّ فعل أو قول يفرّق بينهم، وأن يمنحهم الحكمة التي لا تدع الخلافات التي لا توازي الوحدة في الوجود تعوق المحبة.

عند هذا المفترق من حياتنا، وفي بداية هذا العام الذي أتمناه سلامياً وخيّراً، ليسأل كلّ منا نفسه ماذا سيقول لربّه العادل عندما سيمثل أمام مجده؟ بمّ سيجيبه إن سأله ماذا فعلتَ بحياتك وهل كنتَ أميناً لعهودك مع نفسك ومع إخوتك ومع وطنك ومعي؟ هل كنتَ صادقاً في كل ما فعلت؟

القديسون يعلّموننا أن الحياة كلّها لا تكفي لكي يذرف الإنسان الدموعَ تكفيراً عن خطاياه فكيف إذا مضى منها ما مضى؟

لتكن بدايةُ هذا العام بدايةَ التوبة لكل منا والرجوع إلى الله وإلى الضمير والعمل بما يُرضي الله أولاً. ولنصلِّ من أجل أن يطيل الربُّ الإله أيامنا لكي تتسع لتوبتنا وتنقية نفوسنا من أجل ملاقاة نور وجهه بوجه نيّر برّرته النعمة».